الفصل الثاني:

شيامن

تقع مدينة شيامن بمقاطعة فوجيان بجنوب شرق الصين قبالة تايوان، يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وتعد بوابة بر الصين الرئيس. وتتبوأ المركز الأول فى العالم من حيث حجم تجارة المواد الحجرية. ولديها أكثر من ٣٠٠٠ نوع من النباتات الآستوائية وشبه الآستوائية.

سفن في مرفأ شيامن

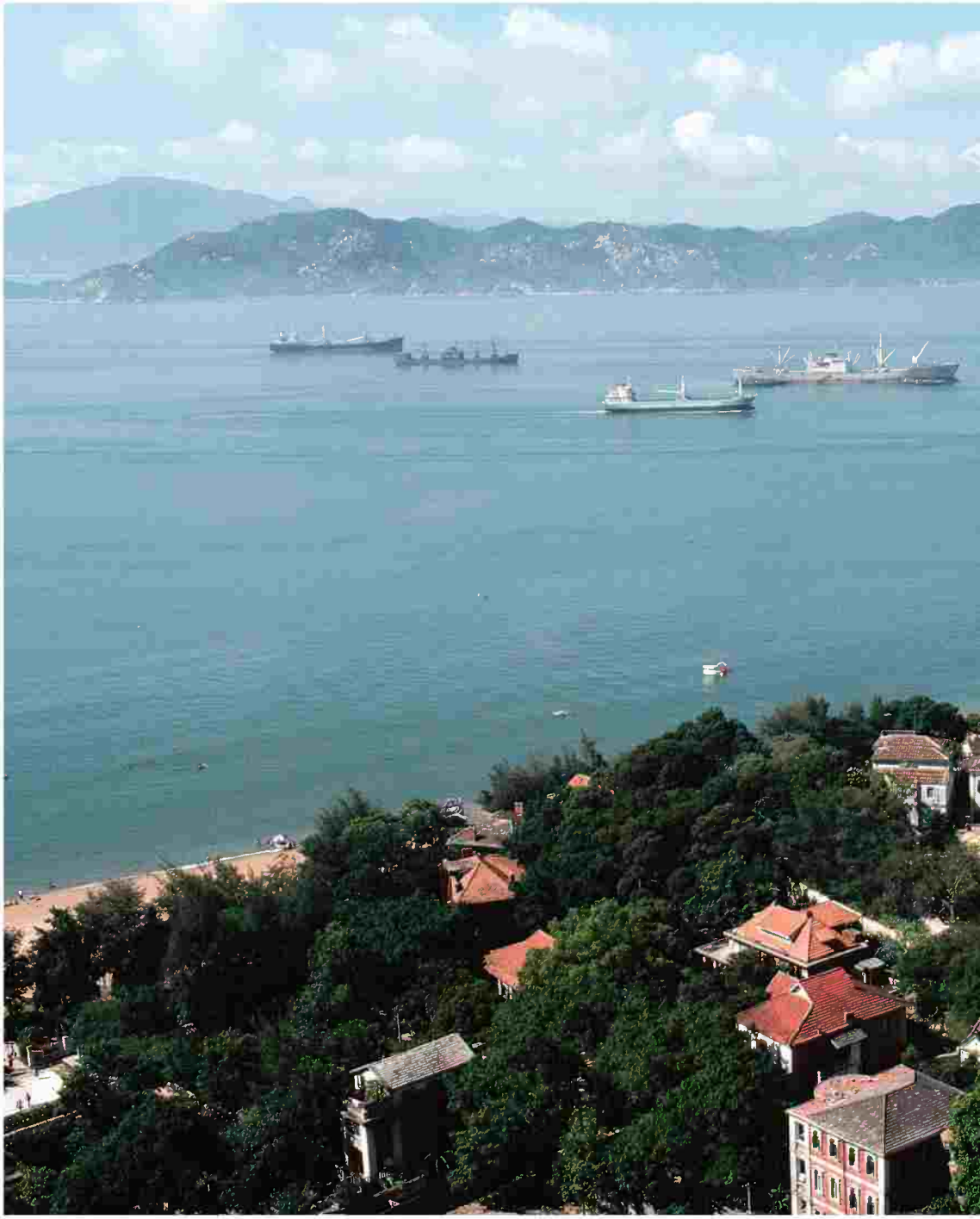

من أكثر مالفت نظر الرئيس الصيني هو جنتاو عند زيارته لأرامكو السعودية الأحد ٢٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، (٢٣ أبريل ٢٠٠٦م) الرؤية البعيدة لأرامكو السعودية من خلال الاستثمار في إنسانها بعد أن قام عدد من الشباب السعوديين بتقديم شرح له خلال جولته على مرافق الشركة. وقد عبَّر الرئيس الصيني عن إعجابه الشديد بعمق ثقافتهم الصينية وتجربتهم التي تصفَّح جزءاً منها في أثناء زيارته الأخيرة.

وأبدى السيد جنتاو تفاؤله بمستقبل العلاقات الصينية-السعودية إثر وجود «جسور تربطنا ببعض» دلالة على الكفاءات السعودية اليافعة التي ابتعثتها الشركة إلى الصين وأصبحت بدورها نموذجاً وقصة للنجاح والتحدي.

نشر في ٢٥ أبريل ٢٠٠٦م

لؤي بدر، أحد الطلبة المتخرجين في الصين،
يقدم شرحاً للرئيس الصيني في أثناء زيارته
لمقر أرامكو السعودية

حساء الضفادع

وبدأت القصة في صيف ١٩٩٨م، عندما أرسل برنامج الابتعاث الجامعي في أرامكو السعودية ١٠ طلاب سعوديين لمتابعة دراستهم الجامعية في الصين لأول مرة وسط تطلعات وقلق كبيرين.

اليوم يحتفل هيثم حسين زمزمي (٢٧ عاماً) وخمسة من رفاقه بمرور ١٠ أشهر على حصولهم على درجة البكالوريوس من جامعتين صينيتين. يقول زمزمي وهو يمضي سعيداً، دافعاً صدره إلى الأمام في «مقهى النجار» بالحي السكني لموظفي أرامكو السعودية في الظهران: إن قرار ذهابه إلى الصين لم يكن سهلاً بالنسبة له ولأسرته، لكنه كان يجب أن يدفع الثمن في سبيل مستقبل فريد ومختلف على حد قوله. أما زميله محمد أحمد القاضي (٢٩ عاماً) الذي تقاسم معه الغربة والنجاح في الصين فيعزو دراسته في شيامن إلى «التحدي» الذي حرضه على اتخاذ قرار بهذا الحجم والأهمية.

يتذكر محمد كلمات والده التي غرسها في أذنه قبل أن يستقل الطائرة، متوجهاً إلى هونغ كونج ومن ثم إلى الصين: «انظر محمد حولك، ستجد المئات ممن تخرجوا من أمريكا وأوروبا، لكن هل ستجد أحداً تعلم ودرس في الصين؟».

لم يكن المشهد مشجعاً عندما وصل هيثم ورفاقه إلى شيامن (جنوب الصين) في ١٥ سبتمبر ١٩٩٨م، المدينة في طور التكوين، لا توجد شوارع حقيقية، عمائر دون رؤوس، صينيون يتراكمون على دراجة هوائية واحدة.

صدم الطلاب العشرة من المناظر التي شاهدوها. تغلب هيثم على الحزن الذي طعنه حينما شاهد الحياة البسيطة البدائية التي تحاصره في شيامن بذكر الله. يقول: «صليت صلاة الاستخارة قبل مجيئي، وهذا ما اختاره الله، وعليّ مواجهته بإيمان بالغ».

يتذكر الطلاب السعوديون الوليمة الهائلة التي أقامها مدير الجامعة بمناسبة قدومهم. يقول هيثم: إن المائدة كانت مملوءة بأصناف عديدة من الطعام التي طلب منهم المضيف أن يتناولوها دون قلق لكونها خالية من لحم الخنزير مما جعل السعوديين يزورون الأطباق المتعددة دون ريبة أو توجس. لكن مع نهاية الوجبة فوجئوا عندما سألوا عن اسم الحساء الذين تهافتوا عليه بأنه كان «حساء الضفادع»، يقول القاضي: «حسبناه حساء الدجاج، لكوننا آنذاك حديثي عهد بالبهارات الصينية».

بالإضافة إلى الصعوبات التي واجهوها مع الطعام، واجهوا صعوبات عدة مع اللغة الصينية عند التحاقهم بالمعهد المتخصص، التابع للجامعة. فمجموعة كبيرة من الطلاب الذين يدرسون معهم اللغة من أصول صينية وكورية ويابانية. واللغة التي يتعلمونها مألوفة بالنسبة لهم، فبعضهم يعيشون في أندونيسيا، أو الفلبين، مما جعلهم يتميزون على السعوديين في سرعة التعاطي مع اللغة والانسجام معها.

يقول هيثم: إن اللغة الصينية تتكون من نحو ٤٨ ألف رمز، ويجب عليه وعلى رفاقه أن يحفظوا ويدركوا مابين ٦-٨ آلاف رمز على الأقل خلال عامين لدخول الجامعة. ويستعمل الصينيون مابين ٢٥٠٠-٣٠٠٠ كلمة في اليوم.

والأصعب من ذلك هو أن لكل رمز ٤ نغمات، مما يتطلب تركيزاً وأناة فائقين عند نطق الرمز. فرمز (م) على سبيل المثال يحتمل ٤ معانٍ حسب طريقة نطقه وهي: أم، حصان، شتيمة، وعلامة استفهام.

من اليمين: صالح الخبتي، وهيثم زمزمي، ومحمد القاضي، ورئيس قسم الهندسة الكيميائية في جامعة شيامن، الدكتور لي تشنج بياو، ومدير جامعة شيامن، الدكتور جو، وماهر الشودري يسترجعون ذكرياتهم في الصين أثناء لقاء جمعهم في أرامكو السعودية

القاضي: مع نهاية الوجبة فوجئنا أن الحساء الذي تهافتنا عليه كان «حساء الضفادع»!

ممنوع التقبيل

يستشهد القاضي بحادثة طريفة تعرض لها هو وزملاؤه في عامهم الأول في الصين، يقول: إنهم أوقفوا سيدة صينية في الشارع لسؤالها. لكنها بدلاً من الإجابة عليهم ابتسمت أمامهم متذرعة بأنهم نطقوا الرمز بشكل خطأ، فبدلاً من أن يقولوا: «هل بالإمكان أن نسألكِ؟»، قالوا: «هل بالإمكان أن نُقبلكِ». فرمز «ون» حسب نطقه يعني السؤال، والتقبيل أيضاً.

وكانت الأخطاء والصعوبات التي تخللت بداية مشوارهم دافعاً للطلاب السعوديين لإتقان اللغة سريعاً. كذلك ضرورة قضاء حوائجهم بأنفسهم كتأجير الشقة، وشراء المواد الغذائية، والأطعمة، والتسوق أسهم في كفاحهم المستميت في سبيل تعلم اللغة على جناح السرعة، خاصة أن غالبية الشعب الصيني لا يجيدون اللغة الإنجليزية.

وأيضاً، لغة الإشارات تختلف في الصين عن سائر دول العالم، فلا يمكن أن ترفع يدك باتجاه فمك لتوضح رغبتك في قارورة ماء، ولا يمكنك أن تستعين بأصابعك دلالة على رقم معين. فلغة الاشارة في الصين تعتمد هي الأخرى على الرموز، فلابد من إجادة كتابة الرموز والأرقام الصينية، لترسمها في الهواء؛ حتى يتسنى للصينيين فهم ما تبتغيه.

وكان الطعام أكثر ما يؤرق الطلبة عند انتقالهم للدراسة في شيامن، حيث كانوا في حالة قلق دائمة من توافر لحم الخنزير في أصناف الطعام التي تلاحقهم في المطاعم، غير قادرين على التحقق من خلوها من لحم الخنزير من عدمه إثر ضعف لغتهم الصينية آنذاك. «لا يمكن أن نحصي عدد الأيام التي أنفقناها دون أن نأكل جيداً» حسب

لقطة جماعية للدفعة الأولى من طلاب أرامكو السعودية المبتعثين إلى الصين

الطالب محمد القاضي. وقد أبلى الطلاب السعوديون بلاءً حسناً في شهور قصيرة في اللغة وسرعان ما استطاعوا أن يتفوقوا على أقرانهم الآسيويين.

يقول رئيس قسم الهندسة الكيميائية في جامعة شيامن، لي تشنج بياو: إنه مندهش من سرعة إتقان السعوديين للغة الصينية خلال أقل من عامين، إنهم مذهلون.

وقد كان الطلاب يتبادلون الكلمات الجديدة التي يتعلمونها يومياً فيما بينهم، فعند ذهابهم إلى منازلهم، يسأل كل واحد الآخر: «ما الرموز الجديدة التي تعلمتها اليوم في المدرسة؟».

لم يكن أمر تعلم اللغة الصينية بالأمر الهين، فقد كان الطلاب يقضون يومهم برمته في الدراسة. فمنذ الساعة الثامنة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً في معهد اللغة، ومن الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الخامسة مساءً يحصلون على دروس تقوية. فضلاً عن الطلاب الصينيين الذين يدعونهم لمنازلهم لتطوير مهاراتهم في التحدث والاتصال. إضافة إلى تعلم اللغة الصينية عن طريق «الكاريوكي» (جهاز يأتي مصحوباً بالموسيقى وكلمات الأغاني).

لا للتراجع

ولم يسمح الطلاب السعوديون لأحدهم أن يتراجع أو يتقهقر إثر الضغط النفسي الشديد الذي يرزحون تحت وطأته، يقول زمزمي: «كنا نجر بعضنا، يلتقط كل منا الآخر عندما يسقط؛ لنكمل مشوارنا الذي بدأناه بكل مثابرة».

الكتابة بالصينية لم تكن سهلة أيضاً، فهي كالرسم، فكتابة «بيت»، تتطلب رسم سقف تحته خنزير. حيث يعتقد الصينيون القدماء أن المنزل لا يكتمل إلا بحظيرة خنازير.

يقول القاضي: إن تعلم اللغة الصينية يجعلك قريباً من ثقافة وتاريخ هذا البلد الغني.

ولا يغفل زمزمي الإشارة إلى اعتداد الصينيين بموروثهم وثقافتهم. يستدل بحديث معلّمهم الصيني، لي لوتشي عندما كان يقول: إن المواطن الصيني ربما يقود دراجة هوائية مهترئة، لكنه لا يدع ابتسامته تنقشع من وجهه.

بعد مضي نحو ٢٤ شهراً في دراسة اللغة، حان موعد اختبار تحديد القدرات HSK الذي يحدِّد أهليتهم لدخول الجامعة من عدمه. حيث يجب على الطلاب أن يحصلوا على ٤ من ١٢ كحد أدنى لدخول الجامعة.

العشرة تجاوزوا الاختبار بنجاح، يقول معلمهم في معهد اللغة، السيد جو الذي حصل على ٩ من ١٢ في ذات الاختبار: إن نجاح الطلبة السعوديين ليس مفاجأة بحد ذاته، بل المفاجأة هي الدرجات المرتفعة التي أحرزوها والتي تجاوزت الستة، تساءل: «كم الدرجة التي سيحصل عليها الطلاب لو تمددت مدة دراستهم للغة الصينية، قطعاً ستتجاوز درجة معلمهم؟».

بدأ الطلاب المرحلة الجامعية بمعنويات مرتفعة. شعر صالح الخبتي (٢٦ عاماً) بعد نجاحه حينئذ بانتصاره في الحرب الضروس التي خاضها مع والده الذي كان رافضاً لمغادرة ابنه إلى الصين آنذاك. يتذكر الخبتي الذي حصل

> اللغة الصينية تتكون من نحو 48 ألف رمز، ويجب على الطالب الأجنبي أن يحفظ مابين 6-8 آلاف رمز على الأقل خلال عامين لدخول الجامعة..

من اليسار: مشعل الخربوش، وصالح الخبتي، ومحمد القاضي، وهيثم زمزمي، بين صينيين في إحدى القاعات الدراسية في جامعة شيامن

مؤخراً على درجة الهندسة الكيميائية من جامعة شيامن أن والده كان يقضي إجازته السنوية في الولايات المتحدة الأمريكية عندما علم بقراره المتمثل بالدراسة في الصين، فدعاه فوراً للقائه في أمريكا لثنيه عن قراره. يقول: «أخذني في جولة حول ولاية ميتشغان محاولاً إقناعي بأن الدراسة في أمريكا أفضل لي، لكنني تمسكت برأيي الذي لم ينسجم معه إلا بعد عامين من الدراسة في الصين».

يسترجع صالح بسعادة اتصال والده لتهنئته على نجاحه في اختبار القدرات، معلناً انتقاله إلى الجامعة، قال لي: «أنا فخور بك».

مستشار تطوير الكفاءات فيأرامكو السعودية، يعقوب يوسف الدوسري، الذي كان يزور الطلبة بين ٢-٣ مرات سنوياً في الصين خلال السنوات الست الماضية، يقول وهو يصارع دموع الفرح التي تتكدس في عينيه: «إن آباء الطلبة ليسوا وحدهم الذين يزهون بأبنائهم، فالوطن بأسره يفخر بهم».

لم تكن الجامعة استراحة للطلاب المبتعثين من أرامكو السعودية فقد كانت حافلة بالعمل والقلق. حيث واجه الطلاب صعوبة كبيرة في التأقلم مع الفصول التي يكتظ الواحد منها بنحو ٨٠ طالباً. فضلاً عن خطوط الأساتذة التي بدت عسيرة أمامهم «كأنها وصفة طبية» كما يقول القاضي.

وكان الأساتذة يرفضون مساعدتهم من خلال إعادة الشرح، ويتعاملون معهم كالصينيين، حفاظاً على تصنيف الجامعة وكلية هندسة الكيمياء في جامعة شيامن على وجه التحديد التي تُعدُّ من أفضل ١٠ كليات في مجالها على مستوى الصين.

لم تقف تلك العوائق حائلاً بين الطلبة وتحقيق حلمهم بل ساعدتهم على بذل المزيد من العمل الذي حظي بتقدير أعضاء هيئة التدريس الذين منحوهم شهادات ثناء عديدة طوال مدة دراستهم الجامعية التي استغرقت نحو ٥ سنوات إضافة إلى العامين الأولين في اللغة.

إعصار وناموس

لم تتركز الصعوبات في الجامعة فحسب، حيث واجهتهم أزمات خارجها، أحدها إعصار تايفون (يعتدي على المدينة كل ٤٠ سنة) الذي هاجم شيامن في ١٩٩٩م وأودى بحياة المئات، ودمَّر الكثير من الشوارع والمباني مما اضطر المدارس والمؤسسات والشركات إلى الغياب لمدة أسبوع من العمل. يقول هيثم: إنه هو وزملاؤه أصيبوا بمرض «النفاضة» الذي ينتقل بواسطة الناموس خلال تلك المدة، يتذكر «تعرضنا لضغوطات عائلية للعودة، لكن لم نرضخ لها».

فيروس سارس الذي اجتاح الصين وجنوب شرق آسيا في ٢٠٠٣م هدد مستقبل الطلبة في الصين. يقول لؤي مازن بدر (٢٦ عاماً)، الذي حصل على درجة البكالوريوس في الإدارة المالية من جامعة إدارة الأعمال الدولية والاقتصاد UIBE في بكين: «إن الفيروس الخطير كاد يبدد حلمه لولا إصراره على متابعة مشواره المحفوف بالمخاطر بكمامة».

يقول مدير إدارة تطوير الكفاءات في أرامكو السعودية، محمد العبدالله، في كلمته التي ألقاها يوم السبت ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٧هـ، (٢٢ أبريل ٢٠٠٦م)، في صالة الخليج بالظهران بمناسبة احتفاء الشركة بمديري وأعضاء هيئة التدريس في جامعتي شيامن، وUIBE الصينيتين: «يحق لي أن أفرح بهذا اليوم، فالحلم الذي تحوَّل إلى فكرة، أصبح واقعاً، رغم كل الصعوبات التي اعترته». وأكد العبدالله أن هؤلاء الشباب الذين نفتخر بهم هم مضرب المثل في التعامل مع التحديات وسيدعمون نجاحات الشركة المستقبلية وسيكونون بمنزلة سفراء يربطوننا بأسواق العالم.

• أبدى مدير جامعة إدارة الأعمال الدولية والاقتصاد UIBE في بكين، البروفسور ذونمين تشين سعادته بالنجاح الذي حققه تعاون جامعته مع أرامكو السعودية خلال الاحتفال الذي أقامته الشركة في شهر أبريل من عام ٢٠٠٦م للأساتذة الصينيين في صالة الخليج بالظهران، مشيراً بسبابته تجاه لؤي بدر (٢٦ عاماً) الذي تخرج في جامعة UIBE مؤكداً أنه ثمرة العلاقة المتنامية، يقول: «ألا يكفي أنه أصبح يتكلم الصينية أفضل من الصينيين في غضون ٧ سنوات؟».

• لم يخف السفير السعودي لدى الصين، الأستاذ صالح الحجيلان فخره بموظفي أرامكو السعودية: محمد القاضي، وهيثم زمزمي، ولؤي بدر الذين قاموا بالترجمة والشرح للرئيس الصيني في أثناء زيارته لمرافق أرامكو السعودية، قائلاً: «إنهم هم ورفاقهم قصة نجاح للشركة وللوطن».

• يقول مستشار تطوير الكفاءات في شركة أرامكو السعودية، يعقوب الدوسري: إن شعور معالي وزير البترول والثروة المعدنية، المهندس علي بن إبراهيم النعيمي، ورئيس الشركة وكبير إداريها التنفيذيين، عبدالله ابن صالح بن جمعة في منتصف التسعينيات بضرورة وجود رجال للشركة في الشرق الأقصى دفع إدارة تطوير الكفاءات إلى التنقيب والبحث عن آليات تترجم المشروع إلى واقع ملموس مما أسفر عن البرنامج الذي أصبح «قصة نجاح».

• لم ينم هيثم زمزمي ورفاقه منذ زيارة الرئيس الصيني لأرامكو السعودية، يقول: «مازلت سعيداً».

«سارس» كاد يبدد حلم لؤي بدر لولا إصراره على متابعة مشواره المحفوف بالمخاطر بـ«كمامة»